مَاريلين مونرُو

متسوّلة اغدقت علينا العَطايا

ديانا تريلينغ

في صباح يوم احد من آب (أوغسطس) ١٩٦٢ وجدت ماريلين مونرو البالغة من العمر ستة وثلاثين عاما ميتة في فراشها في لوس انجليس ويدها على التلفون ، كما لو انها كانت قد تلقت مخابرة قبل لحظات أو كانت (وهذا هو الأرجح) على وشك ان تخابر احداً . وكان على الطاولة الى جانب فراشها صف طويل من الأدوية ، من بينها زجاجة كانت فيها ٢٥ حبة نمبوتال وجدت فارغة . وبعد اسبوعين قام فريق من الاطباء النفسيين الذين عينتهم الولاية بموجب قوانين كاليفورنيا بوضع تقرير عن ملابسات موتها وظروفه ، وقرروا فيه انه كان انتحاراً . ولم يكن قد اشار احد قط من قريب او بعيد الى احتمال كونها قُتلت قتلاً : فكان واضحاً انها هي أودت بنفسها، وان موتها كان ذروة لآلام عقلية استغرقت وقتاً طويلاً ، وسرعان ما تبين انها اتصلت مساء يوم السبت بمحللها النفسي الذي كان يعالجها لما تشكوه من أرق وقلق وسويداء طالبة منه ان يسرع اليها ، وانه قام بزيارتها . لكن تقرير الاطباء النفسيين الرسمي كان يتوجب عليه ان يقرر هل كانت جرعة الحبوب الزائدة مقصودة أو عرضية ؟ هل قصدت ماريلين مونرو ان تتخلص من حياتها عندما اخذت حبوب النوم الخمس والعشرين تلك ؟ وكان قرار الخبراء ان ذلك كان عن قصد وتعمد ، وانها قد أرادت ان تموت .

وأعتقد ان هذا القول يحتاج الى شيء من التعديل . لست أزعم بالطبع بأن موت ماريلين مونرو كان عارضاً بمعنى انها جرعت هذه الكمية الكبيرة من الحبوب بدون ادراك

لطبيعتها القاتلة . ولكني أعتقد ان الأصح ان اسمي هذه الميتة طارئة لا متعمدة ، طارئة على الرغبة في التهرب من آلام العيش . لست بطبيبة نفسية ، ولم يحدث لي ان عرفت مارىلين مونرو مطلقاً ، ولكن يبدو لي انه يمكن لانسان ان يبتغي التخلص من الوعي بدون ان ينشد الموت فعلاً ، وانه يمكن لانسان ان يبتغي وضع حد للعيش بدون ان يرغب في الموت . وهذا هو شعوري بخصوص مارىلين مونرو ، انها حتى عندما كانت تتحدث عن « ابتغائها ان تموت » انما قصدت في الواقع انها تبتغي وضع حد لآلامها ، وليس لحياتها . فهي أرادت ان تقضي على الوعي لا على ذاتها . ومن ثم ، بعد ان اخذت الحبوب ، أدركت انها قد لا تعود ابداً من المنام الذي كانت تتشوق اليه بوله ، فمدت يدها الى التلفون طلباً للمساعدة . لكن هذا بالطبع مجرد تخمين ، والبحث فيه أجدر بالأطباء منه بغير الاختصاصيين . اما بالنسبة لنا نحن فان الدوافع المحيطة بانتحار مارىلين مونرو أقل اهمية من الحقيقة الطاغية ، حقيقة الفعل ذاته : ان مارىلين مونرو قد وضعت حداً لحياتها . فبينما كان الاطباء والاختصاصيون يدققون في الفرق بين العارض والانتحار ، ادرك الجمهور ان ما لم يكن بد من حدوثه قد حدث اخيراً : ان مارىلين مونرو قد قتلت نفسها . وأصاب الجميع صدمة ويأس ، لكن لم يدهشهم ابداً انها كانت هي المسؤولة عن موتها ، لأن العالم كان لمدة سنوات خلت مهيئاً لمثل هذه النهاية الفاجعة لحياة من أبرز الحيوات في عصرنا .

والواقع ان معظم القصص والاخبار التي راجت خلال السنوات الاخيرة عن مارىلين مونرو كانت تتحدث عن امكانية انتحارها او على الاقل عن خطر انهيارها انهياراً عقلياً بالغاً . لا اقصد ان هذه القصص والاخبار كانت تقول صراحة انها ستقضي على حياتها في يوم من الايام او انها ستتخطى حدود الوعي والادراك ، لكن كان جميع الذين يكتبون عنها يتعمدون ان يؤكدوا لنا انها رغم عدم استقرارها ورغم خطورة مشاكلها العاطفية فهي ما تزال مليئة بالحياة ومتشوقة لها : فهي ممثلة جدية ، طموحة ؛ وهي قد عقدت نيتها على تحسين فنها ؛ وهي قد فشلت في الزواج مرات عديدة لكنها ما تزال تنشد الكفاية والتحقيق في الحب ؛ وهي قد اسقطت عدة مرات ولكنها كانت لا تزال تتشوق الى انجاب الاطفال ؛ وهي تحت اشراف دقيق من قبل المحللين النفسيين ؛ وقوامها افضل منه في اي وقت مضى ؛ وهي تدرب نفسها على الدقة وضبط المواعيد ؛ وهي تحاول

التغلب على كل ما يضع العثرات امام انجازها فيملها الاخير ـ على هذه الشاكلة كانت تتوالى جميع القصص والاخبار. بل ان الحديث الاخير الذي ادلت به ونشر في احدى الصحف (عندما نشر فعلا كانت قد اصبحت في عداد الاموات) كان فيه ذات الوتر هـذا ، وتر الامل : فقد بدت ماريلين مونرو فيه تفعمها الثقة بان تمثيلها سيتحسن وستجـد الأدوار الصالحة لها ،وانها ما بين علاجيها ـ علاج التحليل النفسي وعلاج العمل والجهد – ستصل الى راحة البال التي كانت تفتقر اليها منذ أمد طويل .

وقد أدرك الجمهور انه ما دامت هناك مثل هذه الضرورة البالغة الى التفاؤل فان الوضع ينذر بالخطر الشديد . لكن الغريب هو انه طوال هذه الفترة التي كانت تتزايد فيها مشاكلها التي كان الجمهور مطلعاً عليها تمام الاطلاع ، ظلت الصورة التي يحملها لها هذا الجمهور كما كانت عليه . فمهما كان يقـال لنا عن ضعف تمسكها بالحياة ظللنا نفكر بهـا كتجسيد لطاقات الحياة . وأظن ان رد فعلي لموتها كان كرد فعـل الكثيرين : كان كأني منيت شخصياً بفقدان عزيز؛غير اني شعرت ايضاً كما كنت لأشعر إزاء كارثة في التاريخ ، أو في الطبيعة ؛ فقد غاب عن الحياة شيء ، وقد غاب من الحياة شيء،لأن ماريلين مونرو لم تعد موجودة . فاذ فقدتهـا الحياة ، تأذّت الحياة .

كانت ماريلين مونرو نجمة معترفاً بهـا قبل ان اعرفها انا إلا كفتاة تزين صورهـا غلافات المجلات . فهناك دوماً هذا الدرع ، درع السخرية ، يضعه بعضنا بين انفسنا وبين من يكون محطّاً لاعجاب الجـماهير ، فكنت أتعمد تجاهل أفلامها . لكن حـدث ذات مساء ان شاهدت على شاشة التلفزيون جزءاً من فيلمها « موقف البـاصات » ، واذا بي اراها . ولست متأكدة اني عرفت من هي هذي التي أراها على الشاشة ، لكن نوراً التمع في الغرفة : وحيث كان كل شيء قاتماً أشرق في الحال ضياء وتألق كما لو انبثق عن شيء يتخطى البشري والعادي . كانت لحظة فذة ، لا اذكر اني عرفت مثلها في حال اية ممثلة اخرى ؛ لحظة تتخذ مكانها مع اختبارات فنية نادرة وعزيزة على القلب ، كذكرياتي ايام شبابي عن بافلوفا التي وصلت حداً من الكمال لم يصله أي فنان ممثل ، او الاختبار القريب العهـد ، اختبـار رؤية بعض صور متحركة لنجنسكي . وماريلين مونرو ايضاً كانت تتحرك : وهذه نقطة هامـة ، إذ ان الصور الساكنة لم تكن لتستطيع ان تقتنص ما فيها من صفة وطبيعة مكهربة؛ ففي صورها المدروسة كان اول ما يفرض ذاته على المتفرج وفرة الناحية الجسدية فيها ،لكنه لم يكن يرى فيها حيويتها الفريـدة او الصفاء الذي

يدمج الروح بالجسد . وهكذا ، في ومضة من الضياء لم تدم سوى لحظة ، سقط عني درع السخرية الذي كنت اقاوم به معبودة الجنس هذه المحببة جداً الى الجماهير ، سقط عني ولم أعد اليه بعدها قط .

هذا ما حدث لي انا ، لكن بقية الناس لم يكونوا مثلي بل كانوا قد وقفوا منذ وقت طويل على ما لمارياين مونرو من موهبة فريدة في كيانها الجسماني واستجابوا لها حسبما تتطلبه موهبة الحياة هذه . فمنذ بداية حياتها الفنية كان الجمهور قد اعترف بعبقرية البيولوجيا ، او الكيمياء ، او ذلك الشيء كائناً ما كان ، الذي ميّز هذه المرأة الشابة عن سائر البشر . وإذ أقرّ بسحرها لم يكن اطلاعه على مرضيتها ليؤثر قط على اعتقاده بأنها حية بشكل لا يتسنى لنا نحن ان نعرفه ، او على الأدق انه كانت فيها شحنة من الحيوية توصلها لنا فتبدل الحياة كما هي في خيالنا — وهذه بالطبع هي مهمة الفن ومعجزته .

خطر لي في الآونة الاخيرة بعد وفاة مارياين مونرو انه ربما كان السبب الذي جعل بامكاننا ان نحتفظ بهذين المظهرين لمعرفتنا لها — اي ايجابيتها في الحياة واندفاعها نحو الموت — في توازن ، هو انها لم يعرضا ذاتيهما علينا قط بشكل يوحي ان احدهما يحول دون وجود الآخر ، بل على العكس بأنهما مظهران مرتبطان وثيق الارتباط بل انهما متوقعان في حياة خارقة كحياتها . فكأن العالم الذي أحب مارياين مونرو ادرك ان فيضها البيولوجي يستثير بحكم الضرورة قيوداً على ذاته ، وان هذه هي الشريعة القاسية التي تقاصص بها الطبيعة (او على الأقل الطبيعة ضمن حدود المدنية) من يتطلبون من الحياة الشيء الكثير او يغدقون على الحياة الشيء الكثير . لقد قيل لنا انه عندما تكون احدى الحواس معطوبة فان الطبيعة تعوض عن ذلك في الغالب باحدى الحواس الاخرى: فالاعمى كثيراً ما يكون سمعه أرهف من سمع البصير او تكون حاسة اللمس فيه أدق. اما ما لم يُقل لنا ولكننا مع هذا نفهمه فهو طريقة الطبيعة في التعويض السلبي — الثمن الذي ندفعه لقاء المواهب ، والانتقام الذي يبدو ان الحياة تنفذه على الدوام ضد التفوق. ولا شك ان ادراكنا لما في مارياين مونرو من نواحٍ « زائدة » حضّرنا لان نتوقع ان تكون فيها نواحٍ « ناقصة » ما . وبدا ان كون هذه المرأة الشابة التي تميزت بمواهب بيولوجية فائقة للعادة تعاني آلاماً عقلية ، بدا انه نوع من التعويض والمعادلة . واعتقد اننا لو لم نكن نعرف عن اسقامها العاطفية فاننا كنا لنهيء انفسنا لمصير مرعب آخر

لها – ككارثة طيران ربما او كمرض مشوه . وهكذا نرى ان الايمان بالخرافات قد يكون فهماً دقيقاً لنظم الحياة القاسية .

ومع هذا فمن الصعب ان نفترض ان الآلهة يمكن ان تبلغ بهم الغيرة هذا المبلغ . ألم تقاصص ماريلين مونرو في طفولتها بما فيه الكفاية بحيث لا تحتاج ان تلقى في المستقبل مآسي اخرى ؟ واذ نجحت هذه الفتاة الفقيرة المهملة في التغلب بقوة سحرية على المشاكل المحيطة بها لم يكن من عجب ان يتوقع المؤمنون منا بالخرافات ان تحظى بالسعادة حتى مماتها . فكان من المستحيل ان نفكر بماريلين مونرو إلا كسندريلا . وبدا ان خير تفسير وتبرير لما في كيانها الجسماني من قوة غريبة هو في الظروف القصوى التي احاطت بها في اوائل حياتها – في ولادتها ابنة غير شرعيـــة ، وامها المجنونة ، والميتم ، وبيوت التبني الشبيهة بمستشفيات المجانين ، واغتصابها من قبل احد الاوصياء عليهـا في سن مبكرة . وان كانت حياة ماريلين مونرو خالية من جنية صالحة ومن امير ساحر (إلا ان قامت هوليوود بهذا الدور) فان هذا لم يجرد قصتها من الاعجاز الذي نراه في كتب الخرافات، انه دمج بالاقصوصة القديمة الخرافة الجديدة التي عندنا عن البطل (او البطلة) الذي يكوّن ذاته بذاته . ان غريس كيلي كانت لها اسرتها الطيبة فمهدت لها طريقها وجعلت حقهـا

« قبل وبعد »
لوحة لستانلي فيشر

بالتاج حقاً شرعياً ، اما مارياين مونرو فانها ملكت بفضل جمالهـــا ليس إلا ، وبفضل اصرارها على ان تتفلت من الظلمة والقذارة وان تشع بنور بهي كامل . وليس بمدعـــاة للدهشة انه كلما ازداد اشراقها لمعاناً ازداد توقعنا دقة منتصف الليل التي من شأنها ان تضع حداً لمثل هذا السموّ .

لكن ابتعاد مارياين مونرو هذا الابتعاد الطويل عن طفولتها التعيسة لم يكن وحده الذي رأينا فيه تحدياً للواقع لم يكن بـــد من ان ينتقم له الواقع . فاذا اعتبرنا موهبتها ليست موهبة مسرحية او سينمائية (واعتقد انها لم تكن هذه بصورة رئيسية) بل موهبة بيولوجية ، فانها كانت واحـــدة من اولئك المفعمين بالقوة ، كانت واحـدة من زمرة الفنانين الحقيقيين . كانت مواهبها بعيدة عن نطاق العادي والمألوف ، فلم يكن لنا مناص من ان نشعر بأن المجتمع كما نعرفه لن يستوعبها — ولهذا فانها كانت تحمل فناءها بـــين طياتهـــا . وكانت قوة مارياين مونرو البيولوجية ، ككل موهبة فنيـــة عظيمة ، قوة متفجرة وبدائية ومتوحشة . من اجل هذا كانت خطراً عليها هي وعلى العالم ايضاً الذي فعلت فعلها فيه . ان الفن كله شرس ، بمقدار اهميته ؛ وهو في شراسته يختار إما التمرد على المجتمع او على القيود التي تحد منه او على الفنـــان نفسه . ولا شك ان عجز معظم افراد البشر عن تحمل هذا الضغط الشديد وقتاً طويلاً هو الذي يفسر كون الفنان امراً شاذاً في اية مجموعة متحضرة من البشر . فالوصول الى حل وسط بـــين الثورة على الذات والثورة على المجتمع ، وخوض المعركة والخروج منهـــا سالماً ، لهو مهمة جبـــارة ليست الموهبة فيها إلا عاملاً صغيراً .

من بين الاسلحة البالغة القلة المتوفرة للفنان في هذا الجهاد المرعب ، ليس سلاح اكثر نفعاً من السذاجة . لكن الانطباع الذي لي عن مارياين مونرو لم يكن ابـــداً انهـــا امرأة ساذجة . اني اعتقد انها كانت ذات براءة ، والبراءة غير السذاجة . فـــان يكون المرء ساذجاً يعني ان يكون بسيطاً او غبياً في امور الاختبارات والتجارب ، ومارياين مونرو كانت بعيدة عن الغباوة : فليس بمقدور من تكون غبية ان توجه لفتاتها البارعة ضد ذاتها او ان تتمكن من الاجابة على الاسئلة المحرجة التي كانت تسألها بالشكل الذي كانت تجيب عليها به . اما ان يكون المرء بريئاً فيعني ان يعاني التجربة بدون ان يقدر ان يتعلم منهـــا حماية ذاته ، كما لو كانت البراءة تحت رحمة التجربة وغير قادرة على تعبئة قوى مضادة للقدر .

واشعر نحو ايرنست همنغوي كما اشعر نحو ماريلين مونرو ، انه كان عاجزاً عن اقامة حصون دفاع كافية ضد احداث طفولته المؤلمة ، على الرغم مما اشتهر به من خشونة وعلى الرغم من بسالته في الحرب والصيد والمغامرات الخطرة التي كانت تستهويه . كان رجلا بريئاً لا رجلا ساذجاً ، ولو انه لم يكن دائماً ذكياً . وفي ماريلين مونرو تعترضنا مفارقة مماثلة : فانها حتى عندما كانت رمزاً للتجارب القصوى ، للمعرفة الجنسية ، كانت تجيء كلّ ظرف من ظروف حياتها (سواء انشدها هذا الظرف ام نشدته هي) كما يجيئه طفل وليد . ومع ذلك فقد كان هذا مبعث الاشراق فيها – براءتها . واشراقها لم تغيبه اختباراتها لبشاعة الحياة وقبحها ، لانه في الحكم الاخير وفي عمق اعماقها لم تؤثر بها هذه الاختبارات من قريب او بعيد .

يرى الاطباء النفسيون ان البراءة المفرطة، ان الفجوة الكبيرة بين ما حدث لشخص وما استوعبه من تجربته ، لهي عارض ينذر بالخطر – فقد تدل على انقطاع في علاقته بنفسه . ولا شك ان البراءة المفرطة في حقول الخلق تستهوينا الى حد كبير ، فهي تبعث نقاوة في التعبير تحملنا على ان نقول عن صنيع فني ما انه « من خارج هذا العالم » . الا ان ما يشكل فن شخص ما قد يؤدي بالتالي الى هلاكه العاطفي .

ويخيل لي ان الاطباء والمحللين النفسيين كانوا يجدون صعوبة في معالجة ماريلين مونرو، وانها كانت من وجهة عاطفية اشبه بالنسبة لهم بصفحة بيضاء لم يخطّ عليها شيء ، وانها كانت لا تقدر ان تقيم صلة بين ذاتها وبينهم رغم انها كانت تتمنى اقامة تلك الصلة . لكن انعدام الصلة هذا كان في صلب موهبتها ، وكان يحدد سحرها في اعين البشر ، كما كان انعدام الصلة بين همنغوي وتجاربه ذا اثر فعال في مواهبه .

لقد حاول عشرات من المؤلفين مدى سنوات طويلة ان يحاكوا اسلوب همنغوي ، ان يحاكوا ما في نثره من مرونة ونقاوة ، وان يحاكوا البعد الذي كان بوسعه ان يضعه بين نفسه وبين الشيء الذي يتحدث عنه . لكن احداً منهم لم ينجح في ذلك . واعتقد ان السبب في هذا هو ان نثره كان لحد ما انعكاساً عن البعد بين الواقع الخارجي وبين عواطفه – هذا البعد الذي لم يكن القضاء عليه ممكناً . وبالشكل ذاته كانت ماريلين مونرو عصية على المحاكاة . ان هوليوود ومسارح برودوي والكباريهات تمدّنا بانتظام واستمرار بعدد من ملكات الجنس ، لكن الجمهور يقبلهن ثم ينبذهن ، او انه لا يقبلهن فعلا ؛ ان العالم لم تستعبده اية من هؤلاء كما استعبدته ماريلين مونرو ، لانه ليس بينهن من

تستطيع ، كما كانت تستطيع مارياين مونرو ، ان توحي بما توحي هي بـه من نقاوة في البهجة الجنسية . ان الجرأة التي كان بوسعها ان تعرض ذاتها بهـا دون ان تؤدي قط الى الابتذال ، والزهو والاستخفاف الجنسيين اللذين كانا مع هـذا يبعثان جوا من الغموض والكتمان ، وصوتها الذي كان يحمل نبرات ناضجة من الاثارة الجسدية وكان مع ذلـك صوت طفلة حيية — كل هذه كانت جزءاً اساسياً من موهبتها .

ما اقصد قوله هنا هو ان مارلين مونرو كرمز للجنس كان فيها بالطبع شيء كثير من الزيف . فالرجال القليلون الذين اعرفهم والذين قابلوها في حياتها الواقعية اجمعوا على انه كان ينقصها الوقع الجنسي المباشر : صحيح انها كانت حلوة وجميلة وظريفة ، لكنها لم تكن ابداً المرأة المثيرة التي توقعوها ان تكون . يصعب جداً ان نحدد طبيعة الجاذبية الجنسية الحقة ، فجانب كبير مما نجده مؤثراً جنسياً ينبع من الاوهام التي لا علاقة بينها وبين الغريزة الجنسية الأساسية . وفي حال الممثلة السينمائية ، اكثر منه في حال سواها ، ندخل ارجاء يختلط فيها الحلم بالبيولوجيا بدون عناء .

كانت مارياين مونرو تتحدث الى احلامنا لذات الحد الذي كانت تتحدث فيه الى طبيعتنا الحيوانية ، لكن بطريقة خارقة للغاية — لانها كانت تستهوي عزمنا على التحرر من الوهم وعلى التمسك بالواقع. وكانت ترضي رغبتنا بمواجهة شهواتنا الجسدية بدون ما يسربلها من رومانسية ومن ملابسـات . واذ عملت ضمن نطاق حضارة كحضارتنا ، الجنس فيها محاط بالقيود والمخاوف والنواهي ، فانها اقتربت الى الحد الأقصى من اعطائنا الجنس ذاته . لكنها لم تعطنا الجنس ذاته : انما مثّلت انها تعطينا اياه . وقد اضفت جواً من الفتنة على الجنس الى حد جعله يفقد ما كان يلابسه من فزع ، وربما كان هذا الحجاب الذي اقامته امام الواقع الجنسي الذي جعل النساء كالرجال يستجبن لها استجابة كبيرة. واعتقد ان النساء ادركن بحكم الغريزة ان هذه المرأة التي تبدو اشد المخلوقات جنسية لم تكن لتهددهن في شيء .

وهكذا فقد كانت اسطورة مارياين مونرو اسطورة بالفعل اكثر مما دار بخلدنا ، فان هذه الفتاة التي كان يفترض ان تحررنا من احلامنا وتؤول بنا الى الواقع الجنسي كانت لحد كبير غير واقعية بالنسبة حتى لنفسها . ولم يكن ممكناً ان تكون واقعية لنفسها من

الناحية الجنسية وفي الوقت ذاته ممثلة علنية مدهشة للجنس وفنانة واعية فيه . ورأيي ان ابتعادها السحيق هذا عن مشاعرها هي ، بما فيها مشاعرها الجنسية ، هو الذي مكنها من الاحتفاظ بفوضى سنواتها الأولى الوقت الطويل التي احتفظت به ، ومن التحدث عن طفولتها الفظيعة بمثل تلك البساطة والعلن . اننا نخبىء عن الآخرين اصغر « شائنة » في ماضينا ، خشية ان تؤدي معرفة الغير لها الى تبديل نظرتنا لأنفسنا . غير ان ماريلين مونرو لم تكن بحاجة الى مثل هذا التحفظ . فقد افشت علناً بافظع الحقائق عن تاريخها الشخصي ، افشت بها للعالم باسره كما لو اننا نحن الذين لا علاقة لنا بها جديرون بالاطلاع على اسرارها – لكننا استجبنا استجابة كريمة غريبة لبراءتها ، ولم نستغل اطلاعنا على اسرارها كما كان يمكن ان نفعل . واذا نظرنا الى الامر من وجهة ما نتطلبه من الفنان ، اي ان تكون له الارادة والجرأة في ان يرتفع على التقاليد التي تقيدنا نحن الذين ليست لنا ما له هو من مواهب ، فان صراحة ماريلين مونرو بخصوص حياتها المبكرة شيء جدير بالتقدير والتبجيل . الا ان صراحتها هذه ، من وجهة نظر اخرى ، كانت انذاراً بان السدود الطبيعية ، سدود وقاية الذات ، كانت مهدودة او معدومة ، بحيث تركتها معرضة لاخطار رياح الظروف المختلفة .

والواقع ان كلمة « معرّضة » كلمة اساسية في سياق حياتها .فقد كانت ممثلة ، تعرض شخصها وشخصيتها على نظر الجمهور . وكانت كائناً بشرياً معرضاً ، تذكر الحقيقة عن نفسها علناً وبكل استعداد . وكانت اكثر من غالبية الممثلات تعرض جسدها، ولم تكن تدرك ادراكاً تاماً ما يحيط بذلك من ملابسات . فنحن نذكر مثلاً الفضيحة الصغيرة المحرجة التي نجمت عن كونها جلست مرة عارية لتلتقط صورتها وتنشر على غلاف روزنامة، والدهشة والبراءة اللتين ابدتها وعدم فهمها سر استياء الستوديو الذي كانت تعمل له، كأنها كانت تريد ان تقول: «لكن تلك هي انا بالامس عندما كنت بحاجة للمال. لكنها ليست انا اليوم ، فانا اليوم املك مالا » . وكما كان الامس واليوم فاقدي الاتصال واحدهما بالآخر، كانت هي فاقدة الاتصال بذاتها ، ولعله لا يربطها معاً الا نجاحها ، ولوقت محدود .

وكان هذا النجاح وثيق الاتصال بادراكها ووعيها لجاذبيتها الجسدية . ولعل كونها محط انظار الجماهير الى ذلك الحد الكبير وهدف اعجابها البالغ كان هو الذي اعطاها الجزء الاوفى من احساسها بكيان وهوية شخصية لها . ونحن نعرف الآن انها قبل وفاتها بزمن غير طويل طلبت بان تصور عارية ، وعملت بعناية على الانتقاء والحذف في هذه

الصور الكثيرة ، كما لو انها كانت تريد التأكد من انها ستخلف للمستقبل خير سجل ممكن لها . غير ان هذه الصور انما تترك سجل جمال مبذر ، او على الاقل فيما يتعلق بجسدها الشهير — فبينما يبدو فيها وجهها جميلا كما كان ابدا ، ولم تترك فيه آلامها البالغة اية ندوب ، فان جسدها يبدو فيها سقيما وتالفا وقد استنزفت منه الحياة . وقد نشرت هذه الصور مؤخرا في احدى المجلات الغالية الثمن المكرسة لامور الحب والشبق . واذا كان سعرها الغالي ، الذي يجعل من المتعذر شراؤها على القارىء العادي ، يمكن تفسيره على انه احتياط ضد سهولة الحصول عليها من قبل من لاينشدون سوى الاثارة ، فان هذا التحسب لم يكن في الواقع ضروريا : ذلك لان مارىلين مونرو العارية لم تكن لتثير في اي متفرج طبيعي اي شيء سوى الشفقة الرفيقة وشيء من الرعب .

لكن نجاحها كان مهدداً حتى قبل هذه اللحظة القصوى . فحياتها الفنية العظيمة كانت قد بدأت بالانهيار . ولم تكن قد مثلت فيلما ما منذ امد طويل ، والفيلم الاخير الذي عملت فيه كان يتأجل مرة بعد مرة لانها لم تكن تقوى على الحضور للاشتراك فيه . ولم تكن لها حياة خاصة تلجأ اليها، بل لم تكن لها شكليات مثل هذه الحياة : فلا زواج، ولا عائلة ، و (كما يبدو) ولا حتى اصدقاء . وقد اعتدنا ان ننظر اليها كأنها اشد الناس وحدة ووحشة ، فكان مدعاة لشيء من المرارة ان نكتشف لدى موتها اننا لم تكن تحدونا وحدنا رغبة في مساعدتها بل كان يشاركنا في ذلك غرباء كثيرون آخرون ، وبصورة خاصة من النساء اللواتي كان تعرّضها الشديد للعطب يستدر عواطف الوقاية والحماية فيهن. لكننا كنا اصدقاءها الذين لم تعرف عنهم شيئا ، ويبدو انه لم يكن مجال بين الناس الذين عرفتهم لاية صلة حقيقية عبر الفراغ الصحراوي الذي يعزل كل من يفقد الصلة بمشاعره. وتخطر ببالنا في تلك العشية الاخيرة من حياتها ، وحيدة ذاهلة ، تفتش عن السلوى الانسانية تفتيشا ، فلا تجد الا ذلك الصف الذي لاينتهي من زجاجات الادوية ، واذا نحن امام شجن ابلغ من المأساة .

ولا شك انه ليس من العدالة في شيء ويصعب على الخيال تصديقه ان تكون اكثر نساء العالم فتنة قد قضت عشية سبت لوحدها بدون رفيق — فقد كانت عشية يوم سبت عندما اودت بحياتها . في اية ليلة عدا ليلة السبت ، يسمح لنا بان نصرف الليلة وحدنا ، اما ليلة السبت فهي الليلة التي على جميع الفتيان والفتيات في امريكا ان «يثبتوا» ذاتهم

جنسياً فيها . هي الليلة التي يجب ان نخرج فيها من بيوتنا ، ونرتاد الاماكن فيرانا الناس فيها بين المصطفين جنسياً . الا ان الفتاة الامريكية التي كانت تمثل النجاح الجنسي وترمز اليه بالنسبة لنا جميعاً صرفت آخر ليلة سبت في حياتها وحيدة بائسة . ان كل رجل في البلاد لكان يتمنى ان يكون رفيق ماريلين مونرو (او هكذا كان ليدعي) ، لكن لم يرافقها من معارفها احد .

او يخطر ببالنا مأتمها (ونحن نتأمل في الوحدة التي كانت تعانيها) ، مأتمها الذي تُعمّد فيه انيمنحها الهدوء والخلوة اللذين كانت تحتاج اليهما طوال حياتها، لكنه لقلة عدد من حضروه ذكرنا بمحدودية علاقتها الواقعية بالعالم . كان جو ديمجيو ، زوجها لاشهر قليلة في اوائل عهدها الفني ، على رأس المشيعين . وديمجيو هذا هو الذي (كما قالت لنا) كان يستحيل اتخاذه زوجاً لانه لم يكن يتحدث : فعند وجبات الطعام كان بدلا من ان يتحدث اليها يقرأ الجرائد او يتفرج على التلفزيون . اما زوجها الاخير ، الذي كان يتحدث ، فلم يحضر المأتم – ولا شك ان لديه اسباباً تبرر تغيبه ، لكن تغيبه كان محزناً . ولست ادري هل تلوا قراءات ما في خدمة الدفن ، او ان فعلوا فلا اعرف ما هي . لكن يطيب لي ان افكر انها كان قراءات ادبية سامية ، كالتي تتلى في مأتم امرىء مبرز فائق التبريز من الناحية الفكرية .

ذلك انه من بين سائر الوان القسوة التي سامها لهذه المرأة الشابة حتى الجمهور الذي احبها ، يبدو لي ان القسوة الاشد والتي لا تجدر بمن يفترض فيهم التمدن ، هي السخرية من رغبتها في ان تتثقف او في ان يظنها الناس مثقفة . صحيح ان لنا الحق في ان يعترينا شيء من الحيرة عندما تدعي معبودتنا الجنسية انها تحب دستويفسكي ، ولكن لا شك في ان باعث انزعاجنا يقبع في شكوكنا بقيمة دستويفسكي لنا اكثر مما يقبع في ماريلين مونرو . فمغزى سخريتنا هو التشكيك بحاجة من يملك مقداراً كافياً من الجنس الى ان يقرأ دستويفسكي . والفكرة ان امرأة كماريلين مونرو لها ما لها من مواهب جنسية كانت تبتغي اي شيء غير القيام بنشاطات الحب والجنس سلب منا وهماً محبباً الينا ، هو ان الجنس هو كل شيء .

واشك ان الجنس كان يعني كثيراً لماريلين مونرو ، عدا كونه وسيلة لاعلاء شأنها في الحياة . وكان احد الاسرار المؤثرة التي باحت بها عن اوائل حياتها وصفها لكيف اكتشفت انها بشكل من الاشكال تختلف جنسياً عن سواها من الفتيات في عمرها ؛ فقد

كان الفتيان يصفرون لها ويتجمهرون حولها كما تتجمهر الدببة على العسل ، وهكذا ادركت ان فيها ولاشك شيئاً خاصاً بها لا بسواها، شيئاً تستطيع ان تستثمره كي ترتفع على ظروفها البائسة . اي ان وعيها الجنسي جاءها من خارج ذاتها . ورأيي الشخصي انه ظل خارج ذاتها على الدوام ، تاركاً فيها فراغاً كبيراً ، في حين انها لو كانت لها نزعة جنسية حقيقية لكانت امدتها باحساس بذاتها كانسان له صلات وفيه محتوى .

هذا الفراغ حالت ان تملأه بكل ما تيسر لها من سبل ، بمتاع الدنيا وبالشهرة وباهتمام الجمهور وبالزواج، وايضاً بسبل لم تتيسر لها كالاطفال والحياة البيتية . وحاولت كذلك الحال ان تملأ فراغها بالكتب والتثقف . فما احقرنا اذ حرمناها من اي شيء كان يمكن ان يزيد في ثقتها بانها انسان بحق وحقيق وليست مجرد جسد غير مأهول .

اما انها كانت تتحلى بمقدرة ذهنية على التعلم فمما لا شك فيه مطلقاً، ولم يكن ينقصها غير ان تُقرن بمقدرة عاطفية . فلو لم تكن على قسط كبير من الذكاء الحاد لما استطاعت ان تسخر من ذاتها بكياسة كما كانت تفعل او ان ترد على اسئلة الصحفيين بما كانت ترد به من دهاء وحسن تخلص. واذا حكمنا عليها من المقابلات في الصحف وسواها، وجدناها خلواً مما يتسم به الممثلون والممثلات في حياتهم الواقعية من رتابة وبلادة ، ومما يتسمون به من تأدب ومجاملة ليسا الا دليلاً على حبهم لانفسهم ؛ ووجدنا انها منزهة عن عادات افراد مهنتها – فلا نذكر انها ابدت مرة واحدة حداً لزملائها او نقداً لسواها من مخرجين ومؤلفين وازواج لتقصيراتها هي . والواقع ان ما كان في روحها من اريحية كان جزءاً من الاشراق الذي لازمها. لكن هذه الأريحية التي وجهتها الى سواها لم توجهها الى ذاتها، فقد كانت قاسية على ذاتها ، وكانت تسخر من نفسها ومن كل ما عندها مما يمكّنها من المضي في الحياة : مواهبها البيولوجية . ولا شك ان هذا زاد في تحبيبها الينا ، لكنه ازاح من تحتها البقعة الصغيرة التي كان بوسعها ان تسميها مُلكاً لها . وعندما كانت تعرض وفرتها الجنسية بذلك الشكل المبالغ المدهش المرح ، او كانت تنظر وعيناها مفتوحتان على وسعها الى ماسببته من دمار ، كانت كأنما تقول بطريقتها الخاصة : « لا تخافوا ، انا لا احمل نفسي محمل الجد ، فلا حاجة لكم بان تحملوني محمل الجد » . اي ان موهبتها الهزلية كانت خيراً على جمهورها لكنها كانت وبالا عليها هي ، اذ انها كانت تحتاج اكثر من سواها من الناس الى اليقين بان لها قيمتها في ميزان الحياة البشرية ، وبان لها كيانها وواقعها ، وبان لها جميع المؤهلات لجعلها انساناً نستطيع اخذه جدياً . كانت تنشد السلوى ، ووهبتنا السلوى . كانت متسولة ، واغدقت علينا العطايا .